الفصل الثانى

الخنساء فى عصرها

١ — متى ولدت ؟
٢ — عروس البادية
٣ — زواجها
٤ — مصابها فى أخويها
٥ — ثكلها بنيها الأربعة
٦ — وفاتها

الفصل الثانى

الخنساء فى عصرها

١ ـ متى ولدت تماضر

لم يحدد القدامى عاماً بعينه لمولد «تماضر بنت عمرو السلمية»، وإنما اكتفوا بذكر أخبارها التى تقطع بأنها أدركت الإسلام ومن أبنائها من بلغ مبلغ الرجال « كالعباس بن مرداس » الذى شهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم غزوة حنين ، ومن شارك فى محنة الردة ، كأبى شجرة .

وكذلك تحرج المستشرق « كرنكوف » من هذا التحديد لعام مولدها ، فقال :

« ونحن نجد مشقة كبيرة فى التوفيق بين التواريخ . وتحديد تاريخ مولد الخنساء على وجه التقريب . ولكننا إذا ذكرنا أن ابنها أبا شجرة كان له شأن كبير فى الردة عام ١٣هـ ، وأنه ربما كان فى الثلاثين من عمره إذ ذاك على الأرجح ، فإنه يجوز لنا أن نفترض أن الخنساء كانت بين الأربعين والخمسين ، بل لعلها كانت أسن من ذلك ».(١)

غير أن المستشرق « جبريللى » حرص على أن يحدد عام ٥٧٥ م أو نحوه تاريخاً لمولد «تماضر»، وتبعه على ذلك نفر من المحدثين ، أذكر منهم « الأب لويس شيخو » والأستاذ « فؤاد أفرام البستانى » .

ونرى الأولين أسلم منهجاً وأدق تناولا ، إذ ليس لنا أن نقطع بيقين فى تاريخ مولد شاعرة جاهلية ، على مانعلم من فقر الأدلة المادية التى تعين على شىء من هذا . وما كان للأخبار النقلية التى دُوِّنت متأخرةً ، أن تحدد مولد شاعر من الجاهلية ، وهو عادة يولد مغموراً لا يلتفت إليه أحد ، ولا يعنى إنسان بتسجيل زمن ولادته أو تتبع أخباره قبل أن تظهر شاعريته وتسلط

(١) « دائرة المعارف الإسلامية » مادة : الخنساء . ويلاحظ عليه أنه ذكر عام ١٣ هـ لخبر أبى شجرة فى حروب الردة ، والصحيح أنه عام ١١ هـ ـ انظر تاريخ الطبرى : ٣/٢٣٥ ط مصر .

عليه أضواء الشهرة، وهذا يفسر لنا اختلاف الأقوال فى تاريخ مولد المشهورين من أعلام العرب ، لا قبل عصر التدوين فحسب ، بل بعده كذلك ، إذ تظهر شهرتهم متأخرة ،وليست هناك مُدَوَّنات رسمية تسجل تواريخ ميلادهم .

ولدت « تماضر » إذن ، ولم يسجل أحد تاريخ مولدها ، ولا تنبأ لها عرّاف أو منجم بأن سيكون لها فى مستقبل أيامها شأنٌ يغرى بالتنبه الخاص إلى ظروف نشأتها . وعاشت كما تعيش لداتها حتى ظهرت موهبتها فى الشعر ، فاحتفل بها قومها دون أن يجدوا حاجة إلى استرجاع أخبار ولادتها . وتناقل الناس أخبارها وقد مضى على ولادتها أعوام ذات عدد ، ثم لما جاء عصر التدوين ، كانت حياتها فى أخبار الرواة والمؤلفين ، تبدأ فى سن الشباب حين خطبها « دريد بن الصمة » . وإنما التفت القوم إليها إذ ذاك ، ووعوا أنباءها ، لأنها كانت حينئذ تقول الشعر ، وللشاعر مكانته فى القبيلة العربية . وهو منها موضع العناية والاحتفال ، فلا غرابة فى أن يبدأ تاريخ « تماضر » مع ظهور موهبتها الشعرية .

ومن ثم أرانى أوثر نهج الأقدمين ، فلا أتكلف مشقة البحث عن يوم مولدها الذى ضاع فى غمار الزمن ، وإنما حسبى أن أقول إنها ولدت حوالى منتصف القرن الأول قبل الإسلام ، فأدركت المبعث ولقيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فى العام الثامن للهجرة[1] وهى فى طلائع شيخوختها ، وإن يكن حزنها على « صخر » وعلى « السادات من مضر » قد هدّ كيانها وجعلها تبدو فى زيارتها للسيدة عائشة أم المؤمنين : « حليقة الرأس تدبّ على عصا »[2] .

وأعجب للذين اطمأنوا إلى تحديد عام مولدها على ما فى هذا التحديد من تكلف واعتساف ، مع أنهم يظهرون الريبة فى مرويات الشعر الجاهلى ؛ والشعر بطبيعته أقدر على التنقل من جيل إلى جيل ، وإنك لتسأل عامة الناس اليوم عن مولد أحمد شوقى ، فلا يحيرون جواباً ، مع أن أكثرهم يحفظون قدراً من شعره ، قل أو كثر . والقياس مع الفارق .

(١ ، ٢) ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة – ٨/٣٤ ط الشرفية ١٩٣٥ .

٢ ـ عروس البادية

أخذ سيّد « بني جشم » وفارسها المظفر طريقه نحو مكة ، يريد أن يبلغها فى إبان الموسم . وقد حفّ به رجال من بنى جشم وفرسانها ، يباهون به قائداً وسيداً ، ويملئون أيامهم ولياليهم ، على طول الطريق ما بين حنين وأم القرى ، بالحديث عن أمجاده الباهرة ، ويترنمون بقصائده الغرّ .

وما كان لعربى أن يسأل : من يكون السيد ؟ إذ ليس فى العرب يومئذ من يجهل « دريد بن الصمة » الفارس الشجاع ، والشاعر الفحل ، والقائد المظفر .

وفى بادية الحجاز ، أناخ الركب رواحلهم ، وانطلق « دريد » على فرسه فى رياضة قصيرة ، فما أبعد حتى استوقفه مشهد آسر : فتاة شابة ، لافتة الملامح ، خنساء الأنف ، ممشوقة القوام ، « تهنأ بعيراً لها وقد تبذلت ، حتى فرغت منه ، فنضت عنها ثيابها واغتسلت وهى لا تشعر به » (١).

ومضت لسبيلها لا تلوى على شىء . . .

وبقى هو يتبعها ببصره وقد عرف فيها « تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السلمى » أخت صديقه معاوية ، وقد لقبوها بالخنساء تشبيهاً لها بالظبية ، لخنَس فى الأنف (٢) .

حتى إذا غابت عنه وراء منعطف الوادى ، أغمض عينيه فى غفوة منتشية ، نبهه منها صهيل فرسه !

---

(١) الأغانى : ١٠ / ٢٢ ط دار الكتب . وهنأ البعير : طلاه بالهناء أى القطران .

(٢) هو تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة ، وهى صفة مستحبة ، أكثر ما تكون فى الظباء وبقر الوحش . وتماضر هى أشهر من لقبن بالخنساء ، وفى الصحابيات أربع خنساوات ذكرهن ابن حجر فى الإصابة (٨ / ٣٥٠) وذكر « أبو بشر الآمدى » فى « المؤتلف والمختلف » ثلاث شواعر باسم الخنساء ، منهن « الخنساء بنت أبى سلمى ، أخت زهير » .

وأكدت له يقظتَه بقايا الهناء على الرمال ، فاعتلى فرسه وتركها تقوده حيث شاءت ، وقد طاب له أن يسلم إليها قياده ، هو الذى ما جرّب قط أن يقوده أحد .

وإذ أشرف على صحبه ، انتفض مستردًّا كامل يقظته ، وخطر له فجأة أن رفاقه قد يلمحون عليه بقيةً من أثر انفعاله بالمشهد، ولعلهم سائلوه عما به ، فبم يجيب ؟

أيقول إن راعية بدوية ، تعالج بالهناء بعيراً لها أجرب ، قد أسرت لبه وأوقفته مكانه لا يريم ؟

واعجبا ! لقد غزا نحو مائة غزاة ما أخفق فى واحدة منها قط [١] وهذا هو يؤخذ على غِرّة ، بمشهد لم يُرَ قط مثلُه بساطةً وجفوة .

ولقد لقى الأبطال والصناديد فما عرف الهزيمة قط ، وهذا هو يلقى سلاحه أمام راعية متبذلة ، لم تتأهب للقائه ، بل لم تحس وجوده وهى تعالج بعيرها ، ثم تنضو ثيابها غير متجملة ولا كاسية ، فتبدو فى حريتها الفطرية وانطلاقها على سجيتها ، وعريها البرىء ، أشبه بقطعة من هذه الطبيعة الصريحة السافرة ، الحرة الطليقة .

وعاد يتذكر ملامحها ، لكنه أُعجِل عن ذكرياته حين رأى نفسه وسط أصحابه ، فوثب من فوق فرسه ، ولم يمهلهم ليسألوه عما كان ؛ بل بادرهم منشداً : [٢] .

حيُّوا « تماضرَ » واربَعُوا صحبى ... وقِفُوا فإن وقوفكم حسبى
أخناسُ قد هام الفؤاد بكم ... وأصابه تَبْلٌ من الحبِّ
ما إن رأيتَ ولا سمعت به ... كاليوم هانئُ أينُقٍ جُرْبِ [٣]

---

(١) الأغانى : ١٠/٣ ط دار الكتب .

(٢) الأغانى: ١٠/٢٢ ط دار الكتب، والشعر والشعراء لابن قتيبة: ٣٠١، والإصابة لابن حجر : ٨/٣٤ ، والبيان والتبيين: ١/١٠١ ط التجارية .

(٣) رواية الجاحظ فى البيان والتبيين : * فى الناس طالى أينق جرب *

متبذلاً تبدو محاسنُه ... يضع الهناءَ مواضع النقب[1]
متحسراً نضح الهناء به ... نَضْحَ العبير بريْطَة العُطْبِ
فسليهمُ عنى خناس إذا ... عضّ الجميعَ الخطبُ: ما خطبي

هتفوا جميعاً فى حماسة : أما والله لو سألتنا لعرفنا بم نجيب !

وكان المساء قد دنا على ريثٍ وأناة ، يلطف بنسيمه الرطب ما تخلف من حر النهار ، وطاب للقوم السهر .

وطاب لدريد كذلك ، على فرط لهفته إلى وحدة يخلو فيها إلى تأملاته .

ذلك أنهم ما وجدوا مادة لسمرهم فى ليلتهم تلك ، ألذ وأشهى من إعداد الجواب عن سؤال « خناس » إذا بدا لها أن تسأل عن : « دريد » .

إنها لن تسأل عنه فارساً ، فما فى العرب إذ ذاك فارس أشجع منه ولا أيمن نقيبة .

ولن تسأل عنه سيداً ، فما مكانُه من بنى جشم بن بكر بن هوازن بالمجهول ولا المغمور .

ولن تسأل عنه شاعراً ، فما يُغفل اسمه إذا عُد فحول الشعراء، وما ينازعه أحد الشعراء الفرسان المكانَ الأول[2] .

ولكنها سوف تسأل عنه : ما خطبه إذا عضّ الجميعَ الخطبُ ؟

وستقول العرب يومئذ :

ما عرفنا مثلَه أصبرَ على النوائب وأجلد للخطوب ، وإنه لمنذ شبَّ عن الطوق موكَّلٌ بثارات قومه ، وما كان أكثرها !

وبعضُ الذى لقى « دريد » من الخطب يهد الجبال ، لكنه لم يُرَ قط إلا جلداً صبوراً ، حتى ليضرب به المثل فى ذاك .

* * *

(١) النقب : القطع المتفرقة من الجرب، واحدتها نقبة .

(٢) الأغانى: ١٠/ ٣ — وجمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى (١١٧ ط بولاق ١٣٠٨) . وفحولة الشعراء (٣٥) ويقول الأصمعى فى كتاب (فحولة الشعراء ، ص ٣٠ ، ٤١) :
« ودريد فى بعض شعره ، أشعر من الذبيانى ، وكاد يغلب الذبيانى » .

وأسفر الصبح عن « دريد » يهب من مرقده قبل رفاقه الذين أجهدهم طول السمر ، فيأخذ طريقه إلى حى بنى سليم ، ويلتمس هناك عمرو بن الحارث بن الشريد ، أو ابنه « معاوية » الذى كان له صاحباً .

وتلقاه « عمرو » مرحباً ، يسأل : أى ريح طيبة ساقته إلى ديار بنى سليم ؟ فأجاب :

ـ جئت أخطب ابنتك تماضر الخنساء[1].

فقال الأب فى حرارة ومودة :

ـ مرحباً بك أبا قرة ، إنك للكريمُ لا يُطعن فى حسبه ، والسيد لا يُرَدُّ عن حاجته ، والفحل لا يُقرَعُ أنفُه .

وسكت برهة ، ثم أضاف بصوت المحرج ، المعتذر والواثق معاً :

ـ ولكن لتماضر فى نفسها ماليس لغيرها . وأنا ذاكرك لها ، وهى فاعلة .

ولم يشأ « عمرو » أن يرجئ الأمر إلى غد ، بل استأذن السيد الضيف ، ودخل على ابنته يقول فى غبطة :

ـ ياخنساء ، أتاك فارس هوازن وسيد بنى جشم : دريد بن الصمة ، يخطبك ، وهو من تعلمين .

فتلبثت مليًّا ثم أجابت :

ـ يا أبتِ ، أترانى تاركةً بنى عمى مثل عوالى الرماح ، وناكحةً شيخ بنى جشم . هامة اليوم أو غد[2] ! ؟

فلم يملك أبوها إلا أن يرجع إلى ضيفه ويقول معتذراً :

ـ يا أبا قرة ، قد امتنعتْ ، ولعلها أن تجيب فيما بعد .

---

(١) الأغانى : ١٠/٢٢ ط الدار . وفى الأمالى (١٢/١٦ ط الدار) أنه خطبها على أخيها معاوية .

والحوار بنصه منقول من (الأغانى) ١٠/٢٢ .

(٢) قصة الخطبة ، وما جرى فيها مروية بتفصيل فى الأغانى (١٠/٢٣ ط الدار) وأكثر مترجمى الخنساء ، يقتصرون على هذه الرواية فى رد الخنساء (راجع ابن قتيبة ٣٠١ ، والإصابة ٦/٦٨) على أن أبا الفرج نقل رواية أخرى تقول إن تماضر بعثت جارية لها فى أثر دريد تخبر حاله ، فحدثتها بما لم يرضها فردته (الأغانى ١٣/١٣٦ ط دار) .

ولم يكن عمرو يدرى أن «دريداً» سمع جواب الخنساء ، حتى قال ، ردًّا على الأمل الكاذب الذى تعلل به أبو تماضر : « قد سمعت قولكما : » وانصرف ولم يزد . . .

انصرف وهو يرجو أن يقهر فى نفسه رغبته فى تماضر ، وأن يرغم قلبه على الزهد فيها تعففاً وإباء .

وأهته قسوة الموقف ، عن تمثّل أصحابه حين يبلغهم نبأ الرفض الجارح ، لولا أن تناهى إلى سمعه إثرَ منصرفه ، صوتُ تماضر تقول لأبيها لائمة :

أتخطبنى ، هُبلتَ ، على دريد وقد أطردت سيدَ آلِ بدر؟

فهاج غضب دريد ، وأنشد يجيبها :

وقاكِ الله يا ابنة آل عمرو من الفتيان أمثالى ، ونفسى [1]

فلا تلدى ولا ينكحْك مثلى إذا ما ليلةٌ طرقتْ بنحسِ

....

وتزعمُ أننى شيخ كبير وهل خبّرتُها أنى ابنُ أمسِ

وقيل لها : ألا تجيبين « دريداً » إذ هجاك ؟

فقالت : لا أجمع عليه أن أردّه وأهجوه [2].

* * *

ولم تمض إلا أيام معدودات ، حتى كان موضوع « دريد وتماضر » حديث مكة وقصة الموسم .

هوازن فى جانب ، تعتز بسيدها وشاعرها الذى كان أشبه بأسطورة فى

---

(١) الأغانى : ٢٣/١٠ ط الدار والإصابة : ٦٦/٨ .

(٢) هكذا قال أبو الفرج فى الأغانى (٢٥/١٠) لكنه فى موضع آخر ذكر بيتين لها رداً عليه (١٣/٦١٣ ط بولاق) مع أنه أوردهما فى الموضع الأول ، فى رفض الخطبة لا فى الرد على هجاء دريد . والبيتان هما :

معاذ الله ينكحنى حبركى يقال أبوه من جشم بن بكر

لئن أصبحت فى جشم هديا إذن أصبحت فى دنس وفقر

وفى الإصابة (٣٥٢/٨) أنها أجابت دريداً بأبيات . ولم يذكر ما هى .

فروسيته وشجاعته ، وتنكر أن ترده فتاةٌ من العرب ، كائنة من كانت !

وبنو سُلَيم ، فى جانب آخر ، تتغنى بأمجادها ، وترى « تماضر بنت عمرو » كفئاً لأن ترد أىَّ سيد

إنها من « قبيلة عزيزة الجانب ، فيها شرف كثير »[1] فلم لا تعتز بانتمائها إليها ، وسيأتى رسول الإسلام فيعتز بتنقله فى الأرحام الطاهرة من السُّلَمِيَّات إذ يقول صلى الله عليه وسلم : « أنا ابن العواتك من سليم »؟

وآل الشريد أشهر السُّلميين ، وعمرو بن الحارث ، أبو تماضر ، كان من وفود العرب على كسرى ، وإنه ليأتى الموسم آخذاً بيدى ولديه صخر ومعاوية ، وكانا أجمل فارسين فى العرب ، حتى إذا توسط الجمع قال بأعلى صوته :

« أنا أبو خيرىْ مُضَر ، فمن أنكر فليُغَيِّرْ »

فلا ينكر عليه أحد . ويستطرد قائلا :

« من أتى بمثلهما أخوين من قبلى ، فله حكمه ! »

فتقر له العرب بذلك .

ومثل تماضر من تباهى بقومها ، وتعتز بآلها اعتزازاً تمثله قصيدتها الرائعة ، التى قالتها فى سباق بين أبيها وأخيها ، وقد قيل لها : لئن مدحتِ أحدهما هجوتِ الآخر .

ومطلع القصيدة :

جَارَى أباه فأقبلا وهمـــا يتعاوران ملاءة الفخـــر[2]

وانفض الموسم وما فى الجزيرة أشهر من تماضر بنت عمرو بن الحارث .

---

(١) لسليم بعد ذلك سابقة حسنة فى الإسلام ، شهد منهم مع النبى صلى الله عليه وسلم فتح مكة وحرب حنين نحو ألف رجل . وقد ظلت ذات مكانة قروناً عدة ، فيقول ابن خلدون عن جماعة منها هاجروا إلى أفريقية وحافظوا على نسلهم وصفاتهم : إن لهم شوكة وصولة . (العبر ٢/٣٠٨ ط مصر) . وانظر أعلام بنى سليم فى (جمهرة أنساب العرب ، ٢٤٩ : ٢٥٢) ذخائر .

(٢) الأغانى : ١٣/١٣٦ بولاق ، الشعر والشعراء لابن قتيبة : ٣٠١ ، زهر الآداب للحصرى : ١٣/٢١ .

(٣) « أنيس الجلساء » : ٤٣ والقصيدة من مختارات السيد المرتضى فى « أماليه ، ص ٦٧ » . وسنتحدث عنها بتفصيل فى الفصل الرابع .

وعادت مع أبيها وأخويها إلى منزلهم فى بنى سليم ، فما استقر بها المقام حتى أدركت ، كما لعلها لم تدرك من قبل ، أنها قد قررت مصيرها ، فتاةً وزوجة ، حين قالت لأبيها : « أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح وناكحة شيخ بنى جشم ؟ » .

* * *

إذن فلا خاطب بعد اليوم من غير بنى سليم .

وأى الناس ، من غير سليم ، يجرؤ على أن يتقدم لخطبتها بعد الذى لقى سيد بنى جشم وفارس هوازن ؟

وماذا أنكرت من « دريد » إلا أنه من غير بنى العم ؟

أما عبارتها « شيخ بنى جشم ، هامة اليوم أو غد » فلعلها لا تعدو الكلمة العابرة تقال دون أن تقصد ، أو لعله ظاهر العذر فى رد شاعر الفرسان .

ولكن أى بنى العم يكون زوجاً لتماضر الخنساء ؟

أغلب الظن أنها لم تكن تعنى أحداً منهم بذاته ، حين قالت ما قالت ، إذ يبدو من أسلوبها ، ومن ملامح شخصيتها ، ومن حديث أبيها عنها ، أنها كانت « تملك أمر نفسها » وتضبط عواطفها ، بل أكاد أقول إنها كانت ، صارمة الإرادة ، برزة متحررة ، فى تلك البيئة التى قيل عنها إنها استعبدت الأنثى وأنزلتها منزلة الهوان .

وليس بين يدىّ دليلٌ نقلى على أنها أرادت تَمَطّا من الرجال لا رجلا بعينه ، وإنما هى طمأنينة نفسية يؤيدها إلى لشخصية تماضر الخنساء ، وإن أعوزها الدليلُ . فلقد خرجت من دراستى لتماضر فى هذه الفترة من حياتها ، وأنا أتمثلها قوية الشخصية ، أشبه بالفارسات (الأمازونات) بطلات الرياضية الخشنة ، ولعل هذا هو مالفت إليها أنظار الفارس ، إذ رأى فيها نموذجاً للأنثى يعز وجوده فى بيئته : شابة فتية ، متينة البنيان ، رياضية الجسم ، أدنى إلى الصرامة ، لا أثر فيها لما يغلب على جنسها من طراوة ولين ونعومة وضعف .

وهذا الرد العجيب الذى لقيت به أباها حين ذكر لها « دريداً » ، يجلو

هذه الملامح التى تمثلتُها، ففيها تلك الجرأة التى ربما أعوزت كثيرات منا فى عصر التحرير ، وفيها العزيمة العنيدة والإرادة المصممة التى هى بالرجال أشبه .

ومن هنا نفهم لماذا لم تتحرج حين نضت عنها ثيابها لتغتسل ، دون أن تتأكد من خلو المكان . ولماذا لم تشعر بشىء من خجل حواء ، وهى تسمع أباها يعرض عليها «دريداً» خاطباً ، بل لم تتردد فى أن تقول رأيها الصريح ، وكأنما كانت ترى فى خجل الأنثى ضعفاً ، وفى استحيائها خوراً لا يليق بشخصيتها الحرة الطليقة .

أقول هذا ، رغم الذى قرأته فى بعض أخبارها ، من أنها فى شيخوختها الواهنة ، ذكرت شبابها فاعتزت بما كان لها من أنوثة وضيئة خلبت الفتيان ، وما أراها يومئذ إلا غافية تحلم بالذى كان يعوزها إبان الفتوة من رقة جنسها ونعومته ولطفه . وقد نسيت فى غفوتها تلك مظاهرَ خشونتها وصلابتها، وأنكرت ما عرفتْ من أمرها بالأمس ، وذلك حيث تقول لابنتها « عمرة » فى جلوة عرسها ، وكان القوم قد أغروا عمرة بالتحرش بأمها العجوز ، فداست على قدمها : « أف لك يا حمقاء ، إنى كنت أحسن منك عرساً وأطيب ورساً[1] وأبسط منك عرْفاً وأرق منك نعلا وأكرم منك بعلا ، وذلك إذ كنتُ فتاة أعجب الفتيان ، لا أذيب الشحم ولا أرعى البهم ، كالمهرة الصنيع ، لا مضاعة ولا عند مضيع »[2].

ويحها !! لقد نسيت موقفها يوم كانت فتاة تهنأ بعيراً لها !

وإذا كان من الدارسين المحدثين من ينكر هذا الخبر لتناقضه مع الذائع المشهور من رؤية « دريد بن الصمة » لها وهى تهنأ بعيرها، فالأمر فيه عندنا أبسط من أن يستدعى الإنكار أو الاتهام . وأى غرابة فى أن تهذى امرأة عجوز بأحلام مكبوتة طال عليها المدى ؟ بل أى عجب فى أن تكون فطرة حواء قد تيقظت فيها متأخرة، فتمثلت صباها معطراً بعطر الأنوثة مجلوّاً بحسنها ورقتها ؟

---

(١) الورس : نبات كالسمسم يصبغ به .
(٢) أنيس الجلساء : ١١ .

٣ – زواجها

رفضت « تماضر » أن تتزوج من سيد بنى جشم ، كما لم تتزوج قبله من سيد آل بدر ، وأعلنت أنها لن ترضى بأحد بديلا عن بنى العم من سُليم

وحين نحاول أن نتتبع موضوع زواجها ، يلقانا عنت من تشتت المرويات وقصور الأخبار : فالأقدمون من مؤرخى الأدب ، لم يعنوا إلا قليلا بما لا يتعلق من حياتها بأخيها صخر ، والإخباريون منهم ، لم يأتوا بخبر عن أزواجها ، إلا فى سياق الحديث عن أولاد لهم منها ، كان لهم ذكر فى تاريخ الإسلام ، على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخليفتيه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

ونعجب للذين قطعوا من المحدثين بيقين فى أمور من حياتها الزوجية ، لم يتوافر لها ما يعين على الثقة والاطمئنان . وزادوا فحددوا سنة بعينها لزواجها من فلان أو فلان ، على نحو ما جاء فى (أنيس الجلساء ، والخنساء فى مرآة عصرها) .

وقد سبق القول فى عبث هذه المحاولة .

أما عن عدد أزواجها ، وأسمائهم ، وترتيب زواجها بهم ، فلا نملك إلا استخلاص ما يجوز الاطمئنان إليه ، بعد مراجعة المصادر التى تقدم لنا مادة البحث ، ومقابلة ما فيها من مرويات ، والترجيح بينها بالمقرر من قواعد الترجيح

* * *

ومن المحدثين ، من عدّوا لها أزواجاً ثلاثة [1] ، على اختلاف فى ترتيب زواجها بهم :

الرواحى ، و عبد العزى ، و مرداس .

---

(١) الروائع ، مقدمة ص ٢ ز ، أنيس الجلساء : ١٠ ، الخنساء فى مرآة عصرها : ١٢٢ وما بعدها ط بغداد ١٩٦٢ .

واقتصر « كرنكوف » فى (دائرة المعارف الإسلامية) و « بروكلمان » فى (تاريخ الأدب العربى) على اثنين فقط ، مع اختلاف فى ترتيب زواجها بكل منهما .

ففى (الدائرة) أنها تزوجت من عبد العزى ، ثم مرداس .

وعند « بروكلمان » أنها تزوجت من مرداس ، ثم عبد الله بن عبد العزى[١] .

وبالرجوع إلى المصادر الأولى ، لا نجد أى خبر يؤيد وجود زوج ثالث لها : فليس فى (تاريخ الطبرى ، والاستيعاب ، وجمهرة أنساب العرب ، ونسب قريش) ولا فى (الأغانى ، والشعر والشعراء) إلا أخبار عن زوجين لا ثالث لهما :

أحدهما : عبد العزى ، والد ابنها أبى شجرة .

والآخر : مرداس ، والد العباس وعمرة وإخوتهما .

والذى نطمئن إليه ، هو أن « عبد العزى » — لا ابن عبد العزى — هو الرواحى الذى جاء اسمه فى قصيدة لها ، وعدّه بعض المحدثين زوجاً ثالثاً لها .

وقد تنبه إلى ذلك « كرنكوف » فقال فى الدائرة — بعد أن ساق خبر رفضها الزواج من دريد — ما نصه : « وزوجت بعد ذلك من رجل من قبيلتها سليم ، اسمه عبد العزى ، ويذهب ابن قتيبة إلى أن اسمه رواحة بن عبد العزى ، فأولدها أبا شجرة » .

والذى فى كتاب (جمهرة أنساب العرب) أن عبد العزى والد أبى شجرة ، هو ابن عبد الله بن رواحة بن مليل السلمى[٢] .

فالرواحى فيما نطمئن إليه ، هو عبد العزى نفسه .

ومنه جاء الاشتباه الموهم أن الاسم لشخص ، والنسب لآخر .

ولعل النسب اختلط بالاسم ، فذكر فى (الشعر والشعراء)[٣] باسم رواحة ابن عبـــد العزى . ولا نستبعد أن يكون هو « الرواحى عبد العزى » نسبة إلى جد أبيه : « رواحة السلمى » .

---

(١) تاريخ الأدب العربى : ١ / ١٦٤ من الترجمة العربية — ط دار المعارف.

(٢) طبعة ذخائر العرب ، ص ٢٤٩.

(٣) ص ١٩٧ ، ط دى جويه .

كما اختلط اسمه باسم أبيه ، فسماه « شيخو ، وبروكلمان ، والبستانى » : عبد الله بن عبد العزى .

وإنما هو : « عبد العزى بن عبد الله بن رواحة » كما فى (جمهرة أنساب العرب) .

ونرجح كذلك ، بعد طول مراجعة للمصادر ، أن الرواحى السلمى ، عبد العزى بن عبد الله ، هو الزوج الأول لعروس البادية ، تماضر بنت عمرو الشريد ، هذه التى تملك من أمر نفسها ، ما ليس لغيرها من النساء .

* * *

ومن ثم تغيب عنا « تماضر » حيناً فلا نكاد نعثر من أخبارها على أثر ينبئنا عن حياتها الزوجية الأولى كيف كانت ، كما لا نعثر فى ديوانها كله — وليس بالصغير ولا المغمور — على بيت واحد يحدث عن حياتها الجديدة زوجةً للرواحى ، أو يشير إلى ما كان من أمر هذه الفتاة الطليقة وهى تواجه لأول مرة قيود الزوجية وتخضع لرجل ، أو ينم عن حقيقة عواطفها نحو ابن العم الذى رضيت به أو اختارته له ظروفها زوجاً .

وما كنا لنستغرب هذا لولا أنها «تماضر»الخنساء الشاعرة ، إذ من العجيب ألا تستثير هذه التجربة الإنسانية ، التى هى أهم وأخطر تجربة فى حياة الأنثى ، المرأة التى فرضت نفسها على المجتمع العربى يومئذ ، كما فرضت نفسها على تاريخ الأدب العربى ، على نحوٍ لم تظفر به شاعرة قبلها ولا بعدها .

وحين أحاول أن أعلل هذا الصمت العجيب ، لا أجد أمامى سوى إحدى اثنتين : فإما أن تكون « الخنساء » قد قالت شعراً فى حياتها الزوجية ، ثم ضُيِّع هذا الشعر كما ضيع كثير مثله ، لسبب أرجو أن أشير إليه عندما أتحدث عن الشاعرة .

وإما أن تكون قد وقفت من تجربتها الأولى موقفاً سلبياً ، لسبب تفسره شخصيتها التى كانت لها وهى فتاة ، أعنى أنها ظلت ، كما قال أبوها :

« تملك أمر نفسها » فلم تستثرها عاطفة عنيفة تهز كيانها وتفتح مغلق قلبها ، وتذوب على لسانها شدواً أو شجواً !

وإذا صح هذا — ولست أستبعده — فإنه لما يؤيد الذى اطمأننت إليه آنفاً من أن « تماضر » لم تتزوج عن حب ، ولا عناها من الزوج المختار إلا أن يكون أحد بنى العم من سُليم .

ونستطيع ، على الرغم من شُحّ الأخبار عن حياتها الزوجية ، أن نرجح من القليل الذى وصل إلينا ، أن تماضر تزوجت وهى فى ريعان شبابها ، بدليل أن ولدها من زوجها « الرواحى » رؤى ، وقد بلغ مبلغ الشباب ، مع خاله « صخر » يقف دونه ، يوم حورة الثانى .

ونرجح كذلك أن الزواج قد أثمر ثمرته هذه فى عهد مبكر ، وأن حياة الزوجين بعد هذا لم تكن سعيدة موفقة ، بحيث اضطرا إلى الانفصال . . .

ولسنا نعتمد فى القول بانفصالهما على خبر صريح ، فكل ما لدينا أن « تماضر » تزوجت بعد «الرواحى بن عبد العزى» من ابن عم لها آخر ، هو « مِرْداس بن أبى عامر السلمى » ، وهذا الخبر يحتمل أن يكون « الرواحى » مات عنها تاركاً لها ولدهما عمراً ، أبا شجرة . لكن هناك خبراً آخر يقول : إن « عبد العزى » رؤى فى تسعة عشر فارساً من بنى سليم ، مع معاوية يوم مصرعه .

فهل كان يومئذ زوجاً لتماضر؟ هذا ما نستبعده ، فإن الخنساء منذ مات معاوية ، ومن بعده صخر ، لم تكن فى حال تسمح لها بزواج جديد ، وبنو الشريد فى مناحتهم الفاجعة بموت زين شبابها .

وقد كانت فجيعتها المزدوجة بفقد أخويها ، هى نقطة التحول فى حياتها كما قال « كرنكوف » بحق ، فى (دائرة المعارف الإسلامية) .

وتماضر لم تُرَ منذ مات صخر إلا نائحة نادبة أو باكية معولة ، وقد أقسمت ألا تنزع عنها ثوب الحداد ، فهل يسهل علينا بعد ذلك أن نتصورها عروساً لمِرداس فى صدار من شَعَر ؟

ثم إن « عبد العزى » شوهد حيًّا يوم حورة الأول ، حوالى سنة ٦١٢م وقد

بعث محمد صلى الله عليه وسلم قبيل ذاك رسولا ، والخنساء أدركت الإسلام وقد أشرفت على الشيخوخة كما رجحنا من قبل ، فهل يسهل علينا أن نتصورها قد تزوجت مرداساً بعد المبعث ، وولدت له البنين والبنات ؟

لهذا نستبعد القول بأن « عبد العزى » قد مات عنها — كما ذكر كرنكوف وشيخو — وإلا لاقتضى هذا أن تكون تزوجت للمرة الثانية، بعد المبعث، وهى فى حدادها التاريخى المشهور قد أتلفها الحزن على السادات من مضر . ولا يشق علينا أن نفسر ما نقرأ عن وجود « عبد العزى » بعد طلاقه للخنساء — مع معاوية يوم مصرعه، فما كان عُرْف القبيلة ليأذن له فى أن يتخلى عن عشيرته .

بل إن « دريد بن الصمة » نفسه ، لم يمنعه ردّ الخنساء إياه ، من أن يرثى أخاها ، صديقه معاوية ، بقصيدة رائية ، يقول فى آخر ما نقل « أبو الفرج » من أبياتها [1] :

فعزّ علىّ هُلْكُك يا ابن عَمْرٍ ومالى عنك من عزم وصبر

والراجح كذلك ، أنها كانت فى حياتها الزوجية الأولى ، تعانى من القلق والضيق وعدم الاستقرار، وأن « الرواحى » هو الزوج المقامر المتلاف الذى طالما شكته، ولعله ضاق بها غير مرة فهمّ بالرحيل عنها لولا أن أمسكته إشفاقاً على ولدها . وقالت له وقد تهيأ للمضى :

« أقم وأنا آتى أخى صخراً فأسأله »[2] .

فأقام « عبد العزى » ، وأتت أخاها فشكت إليه حالها وما تلقى من ضيق العيش ، فما كان من صخر إلا أن شطر ماله شطرين أعطاها خيرهما .

ورجعت بالمال إلى زوجها ، فما امتلأت به يداه ، حتى هاجت شهوته إلى المقامرة ، فانطلق به حتى أتلفه قبل أن يتم العام دورته .

وعادت تماضر إلى صخر وقد صفرت يدها مما أعطاها من قبل . فشاطرها صخر بقية ماله ، لكن الزوج ما لبث أن قامر به فقمر .

وتكررت المأساة ، حتى إذا كانت الرابعة وهمّ «صخر» بأن يشاطر أخته ما بقى من ماله ، قامت إليه زوجه فعذلته قائلة :

---

(١) الأغانى : ١٣/١٣٠ ساسى (٢) الإصابة : ٨/٣٥٢ .

« إن زوجها مقامر ، وهذا مالا يقوم له شيء ، فإن كان لا بد من صلتها فأعطها أخس مالك ، فإنما هو متلف ، والخيارُ فيه والشرار سيّان » :

فكان جواب صخر :

والله لا أمنحها شرارها وهى حَصَانٌ قد كفتْنى عارَها
ولو هلكتُ مزقتْ خمارها واتخذتْ من شَعَرٍ صدارها

ثم شطر ماله فأعطى أخته أفضل شطريه ، دون أن يدرى أنه بهذا الذى قال وفعل ، قد أثقل كاهلَ «تماضر » بدينٍ باهظ الأداء، وفرض عليها أن تمزق خمارها من بعده ، وتتخذ من شعر صدارها . . .

ولم يكن من المحتمل أن تستمر الحياة بالزوجين على تلك الحال ، فلا غرابة فى أن ينحسم الموقف بالانفصال ، فتفصم عروة هذه الحياة الزوجية بعد أن طال بها التعثر والقلق ، وطالت منها الشكوى والرغبة فى الانعتاق . . .

ولنا أن نسأل : ألم تكن «تماضر» تعرف داء زوجها قبل أن ترضاه زوجاً ؟ إنه غير غريب عنها ، بل هو من صميم العشيرة ، وما كانت عيوبه بحيث تخفى على قومه ، فكيف تزوجته وقد عرفناها ذات رأى وإرادة وشخصية ؟

لعلنا لا نخطئ الظن ، إذا زعمنا أن داء المقامرة لم يستفحل بالزوج إلا بعد أن تزوج ، وربما افتقد فى حياته الزوجية ما كان ينشده من أنس وسكن ، وافتقد فى زوجته لين الجانب ودماثة الطبع ولطف المعاشرة ، فمضى يتسلى بالمقامرة حتى ضرِىَ به الداء وعَصِىَ على العلاج.

وبقى لها من ذلك الزواج الأول ، ولدهما الشاعر : «عمرو ، أبو شجرة بن عبد العزى » الذى ذاع خبره فى حروب الردة ، ورُوِى فيها شعره [1] .

• • •

رجعت« تماضر » إلى بيت أبيها وما تزال فتية صالحة للزواج ، ولا نستغرب أن يكون زوجها الثانى من بنى العم أيضاً : « مرداس بن أبى عامر

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣/٢٣٥ ط الحسينية بالقاهرة.

السلمى » ، وكان يلقب بالفيض لسخائه[١]

ولم تكن عناية الإخباريين بحياتها الزوجية الثانية ، أوفى من عنايتهم بالأولى، ذلك أن ظهور « صخر » على مسرح حياتها فى المحنة التى أشرنا إليها ، وارى خلفه كلّ من عداه ، واستأثر دون الزوج والأبناء ، بالحظ الأوفى من عواطف «تماضر» وشعر « الخنساء » واهتمام المؤرخين والمؤلفين .

ولا نعرف من أخبار زوجيتها ، إلا أنها ولدت لمرداس أربعة بنين : هم العباس ، وجزء، ومعاوية وهبيرة .[٢] وبنتا هى « عمرة بنت مرداس ».

على أن « مرداساً » ظفر من زوجته بما لم يظفر به أحد قط غير أخويها ؛ لقد جادت عليه بمرثية ، وهى التى ضنت على بنيها يوم استشهدوا جميعاً ، ببيت واحد من الشعر .

والمرثية لا تكشف فى صراحة عن عاطفة زوجة نحو زوجها ، ولا تلتفت إلى ذكريات عهد لهما مضى ، وإنما هى تأبين للفقيد وإشادة بذكر شمائله .

لقد كان مرداس فى رأيها خير الناس ، لو وُزِن به ماجدٌ لاعتدل به: سعةَ حلم ، وبُعدَ همة وشجاعةً ومروءةً[٣] .

والقصيدة من أجمل مراثيها وأقواها ،وأغلب الظن أن «مرداساً» مات قبل أن تروع « تماضر » بفقد أخويها صخر ومعاوية ، وإلا لما ظفرمنها بكلمة واحدة ، فقد نذرت ألا تحزن على أحد من بعد صخر ، وألا ترثى ميتاً بعده .

وأحسب لو أن العمر امتد بزوجها « مرداس » حتى فجعت فى صخر ،لما طاوعها لسانها على أن تقول إنها ترى الدنيا حولها مظلمة والبدر كاسفاً، فما عهدنا الخنساء بعد أن مات صخر ، تجد بعده بدراً لم ينكسف ،ونوراً لم ينطفئ .

---

(١) قالت عمرة بنت مرداس ترثيه :

والفيض فينا شهاب يستضاء به إنا كذلك فينا يوجد الشهب

« أنيس الجلساء » : ص ١١ .

(٢) هكذا سماهم ابن حزم فى (جمهرة أنساب العرب : ٢٥١ ذخائر) وعدهم « ابن عبد البر » فى (الاستيعاب) أربعة كذلك ، ولم يذكر أسماءهم .

(٣) الديوان : ٧٧ . وستأتى هذه المرثية ، فى المختار من شعرها.

٤ ـ مصاب الخنساء فى أخويها

ونمضى لنرى « تماضر » قد ترملت ، قبل مصرع أخيها معاوية على الأرجح ، وقد شب ولدها البكر « أبو شجرة : عمرو بن عبد العزى الرواحى » ، أما بنو مرداس فما يزالون ـ عدا العباس ـ صغاراً .

وما من ريب فى أنها وجدت من أخويها نعم العون ، فى محنة ترملها ، وأن صخراً ، بصفة خاصة ، ما كان ليرضى أن تتعرض لمذلة الحاجة ، أو تنوء تحت قسوة الأيام .

ما من ريب فى أنه وقف إلى جانبها ، يرعاها ويحمل عنها عبء يتاماها الصغار ؛ حتى كانت الكارثة الفادحة :

لقد هلك صخر : زين العشيرة ، وأولهم حلماً وجوداً وشجاعة وجمالا[1] ومن قبله هلك «معاوية» وكانا على ما رَوَى أبو عبيدة أجمل رجلين فى العرب[2] ولنا أن نتصور محنة « تماضر » وهى تفقد أخويها ، واحداً بعد الآخر ...

* * *

وكان لهلاكهما قصة مثيرة ، رواها صاحب (الأغانى) . وقد بدأت فى عكاظ ، إذ وافى معاوية بن عمرو الموسم ، فبينا هو يسير مزهوًّا بجماله وفروسيته ، لقى « أسماء المرية » فأعجبه جمالها ، ودعاها إلى نفسه وهو يحسبها بغيًّا[3] . فامتنعت عليه قائلة : أما علمتَ أنى عند سيد العرب : هاشم بن حرملة الغطفانى ؟

قال وقد أثارته بردها : أما والله لأقارعنَّه عنكِ .

فهزت كتفها قائلة فى تحدٍّ : شأنك وشأنه .

---

(١) الإصابة : ٣٥٢/٨ .

(٢) الأغانى : ١٣/١٣ بولاق .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٣٤ .

ومضت إلى «هاشم» فحدثته بما كان، فانطلق مغضباً حتى أتى معاوية يسأله عن الخبر ، فقال معاوية :

« لوددتُ والله أنى قد سمعت بظعائن ينديَنَّك » .

وأجاب «هاشم» وهو يشير إلى جُمَّة[1] « معاوية » التى كانت تلمع أبداً كأنها تنطف دهناً وإن لم تدهن :

« والله لوددت أنى قد بَريتُ الرطبة » — يعنى جُمَّته

فما انفض الموسم حتى تهيأ معاوية لغزو بنى مرة ، قوم هاشم ، فنهاه أخوه صخر ، لكنه أبى إلا أن يمضى لما يريد .

وانطلق فى فرسان من بنى سليم ، حتى إذا دنا من ديار بنى مرة ، دوَّمَتْ عليه طيرٌ وسنح ظبى ، فتطير منهما أصحابه ، وما زالوا به حتى رجع . وبلغ ذلك هاشمَ بن حرملة فقال : « ما منعه من الإقدام إلا الجبن » .

واستثارت الكلمة معاوية لما بلغته فخرج فى العام التالى ، مصراً على الغزو ، لكن أصحابه تطيروا من ظبى سانح ، فرجعوا وتخلف هو فى تسعة عشر فارساً ، منهم « عبد العزى الرواحى السلمى » شيخاً ، لا يريدون قتالا .

وورد « معاوية » وأصحابه ماء هناك يسقون ، فعرفتهم امرأة من جهينة — أحلاف بنى سهم بن مرة — فانسلت حتى أتت «هاشم بن حرملة» فأخبرته أن «معاوية» ، فى تسعة عشر رجلا من صحبه ، غير بعيد !

وقال هاشم مرتاباً : أمعاوية فى هذا العدد الضئيل قريباً من بنى مرة ؟ شبَّهتِ وأبطلتِ .

فوصفتهم له واحداً واحداً ، فخرج هاشم مع أخيه دريد ، وجمعٍ من قومه ، وأصابوا من «معاوية» مقتلا .

وشدَّ فرسان بنى سليم على عدوهم ، فقتلوا بمعاوية مالكَ بن الحارث سيد بنى فزارة ، وعادوا إلى «صخر» وهم يظنون أنهم مُرْضوه بما أدركوا من ثأر عاجل.

(١) الجمة : مجتمع شعر الرأس .

لكن صخراً لم يرض، وإنما انطلق حتى أتى بنى مرة يسألهم: من قتل معاوية؟ . فسكتوا طويلا ، ثم قال هاشم :

« هلم أبا حسان إلى من يخبرك ، إذا أصبتنى أو أصبتَ دريداً أخى ، فقد أصبت ثأرك » .

سأل صخر : فهل كفنتموه ؟

أجابوا: نعم ، فى بردين . قال : فأرونى قبره .

فمضوا به حتى إذا رأى القبر جزع ، غير أنه ما لبث أن تمالك نفسه وقال :

« كأنكم قد أنكرتم ما رأيتم من جزعى. فو الله ما بِتُّ منذ عقلت إلا واتراً أو موتوراً ، طالباً أو مطلوباً ، حتى قتل معاوية ، فما ذقتُ طعمَ نوم بعده » .

وسأل عن الشماء ، فرس معاوية ، فجاءوه بها .

ثم انصرف وقد توعدهم أن يأتيهم فى العام القابل .

وأنجز وعيده . غزاهم على « الشماء » فنال منهم، وقتل عدداً فيهم دريد ، أخو هاشم .

وأدرك ثأره ، وإن فاته أن يشتفى من « هاشم » الذى نجا .

وخرجت بنو غطفان فى إثر صخر تطلبه، فوقف دونه ابنُ أخته: أبو شجرة ابن الرواحى [1] ، حتى فات طالبيه ، . . وعاد إلى ديار بنى سليم وهو يقول :

وذى إخوة قطَّعْتُ أفراق بينهم كما تركونى واحداً لا أخا ليا

ثم شاء القدر لهذا الذى لم يَبِتْ منذ عقل إلا واتراً أو موتوراً، أن يرقد طريح الفراش حتى يملَّه أهله .

خرج « يوم ذى أثل » [2] قائداً لبنى خفاف ، فاصابوا فى بنى أسد بن خزيمة غنائم وسبياً ، وأصابت صخراً يومئذ طعنة فى جنبه فرقد جريحاً . . .

---

(١) العقد الفريد : ٦/٠٩ — وفى الأغانى أنه العباس بن مرداس .

(٢) أيام العرب » . ص ٣٩٩ ط الحلبى ١٩٤٢ ، وانظر خزانة البغدادى : ٣٩٣ .

وليتها كانت القاضية ، فهكذا يموت الأبطال وقد كان «صخر» بطلا ..

لكنه لم يمت ، بل عاش ليجرع العذاب والهوان .

عاش عاماً وبعض عام ، لا يموت ولا يحيا ، أو كما قالت امرأته وقد سألها أحد العُوَّاد : كيف أصبح صخر الغداةَ ؟

أجابت : بشرّ حال ، لا حيٌّ فيرجى ، ولا ميت فيُنعَى . ولقد لقينا منه الأمَرَّين ! (١).

وسمعها «صخر» ، فكان ذلك أشد عليه من ألم الجرح ومحنة العجز . .

إذن فقد ثقل على امرأته التى أحبها جهد الحب !

وانتظر حتى دخلت عليه فسألها وهو يرجو أن يكون سمعه قد خانه :

— كيف قلت للعائد ؟

أجابت وقد أفلت منها زمام التجمل والمداراة : أو لستُ قد صدقتُ ؟ .. .

وهمَّ صخر بالنهوض ، لكن ضعفه أمسكه إلى الفراش ضائعَ الحيلة مهيضَ الجناح .

وسكت على مضض وهوان . . .

حتى إذا كان الغد ، مرَّ عائد آخر ، وأمُّ صخرٍ على باب الخباء ، فسألها عن حاله : كيف أصبح الغداةَ وكيف بات البارحة ؟

أجابت : بأحسن حال . ما كان منذ اشتكى خيراً منه اليومَ ، ولا نزال بخير ما رأينا سواده فينا .

فلمست كلمتها قلبَ الفارس العاجز ، وأذابت حرارةُ حبها ذلك الركام الثلجى

---

(١) هذه رواية أبى عبيدة ، عن أبى بلال بن سهم بن عباس بن مرداس السلمى . ذكرها أبو الفرج فى الأغانى ، ومثلها فى « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ، وفى شرح مقامات الحريرى للشريشى . وفى رواية أخرى بالأغانى (١٣/١٣٦ بولاق) أن التى قالت هذه المقالة ، بديلة الأسدية ، وكان صخر سباها حين اكتسح بنى أسد ، فاتخذها لنفسه . وحين سمع كلمتها للعائد قال :

ألا تلكمو عرسى بديلة أوحشت فراقى وملت مضجعى ومكانى

الذى كان يكفّنُه منذ سمع قالة « سلمى » وأنشأ يقول :

أرى أمَّ صخر لا تمل عيادتى ... وملّت سليمى مضجعى ومكانى (١)
لعمرى لقد نبهتِ من كان نائماً ... وأسمعتِ من كانت له أذنان
وأى امرئ ساوى بأمّ حليلةً ... فلا عاش إلا فى شقا وهوان

* * *

« لا نزال بخير ما رأينا سواده فينا » .

هكذا قالت أم صخر .

أفكان ذلك أيضاً رأىَ أخته تماضر ؟

أم لعلها آثرت أن تذوق كأس الفراق ، على أن تشهده فى محنته تلك ؟

ذلك أننا نراها — فى مشهد آخر — قد أعياها أن تتحمل مرآه الفاجع ، ففى الخبر أنه « لما طال البلاء على صخر ، وقد نتأت قطعة مثل الكبد فى جنبه فى موضع الطعنة ، قالوا له : لو قطعتها لرجوت أن تبرأ » .

قال مستسلماً : « شأنكم » . فأشفق عليه بعضهم ، لكنه أبى إلا أن يفعلوا قائلا : « الموت أهون علىَّ مما أنا فيه

فأحموا له شفرة ثم قطعوها . وسألت تماضر : كيف كان صبره ؟ »(٢)

إذن فالمسكينة لم تطق أن تشهد العملية ، بل انتظرت بعيداً على أحرّ من الجمر ، حتى إذا انصرفوا من عنده بعد أن قطعوا ما قطعوا ، سألت فى لهفة وتوجع : « كيف كان صبره ؟ » وسمع صخر سؤالها فأجاب :

أجارتنا إن الخطوب تنوب ... على الناس ، كلَّ المخطئين تصيب
فإن تسأليني : هل صبرتُ ؟ فإنني ... صبور على ريب الزمان صليب

---

(١) هذه رواية الأغانى ، وابن قتيبة فى عيون الأخبار (٤/١١٩) .
ورواه الحصرى فى « زهر الآداب » ٤/٦٩ : « ألا أم عمرو لا تمل عيادتى » مستشهداً به على أن الخنساء كانت تكنى أم عمرو . ونرى البيت الثالث شاهداً على أنها « أم صخر » .
(٢) الأغانى : ١٣/١٣٦ سلمى .

كأنى وقد أدنوا إلىَّ شِفارَهم … من الصبر دامى الصفحتين ركوب
أجارتنا لستُ الغداةَ بظاعن … ولكنْ مقيمٌ ما أقام عسيب(١)

على أن القصة لا تمضى هكذا دون أن تضيف إليها الروايات حكاية اخرى تشهد بما كان لصخر من شهرة ذائعة وجمال فائق . فلقد عقب « أبو الفرج » على الرواية التى نقلناها فى وفاة صخر بقوله : « قاله أبو عبيدة . وقال غيره : إن صخراً ورد المدينة مع صاحب له من بنى كنانة ، وكانا أجمل رجلين فى العرب ، فشربا عند يهودى خمّار بالمدينة ، فحسدهما لما رأى من جمالهما وهيئتهما وقال : إنى لأحسد العرب أن يكون فيهم مثل هذين . فسقاهما شربة جويا منها . فمر بصخر طبيبٌ بعد ما طال مرضه ، فأراه ما به فقال : أشق عنك فتفيق . ثم عمد إلى شفرة فجعل يحميها ثم يشق بها عنه فلم يلبث أن مات » .

وما ينبغى أن تفوتنا دلالة هذه المرويات ، على ما كان لصخر من شخصية لافتة ، تناقلت الأجيالُ ملامحها حتى عصر التدوين .

* * *

مات صخر . . .(٢)

وسجل التاريخ الأدبى للعرب مولدَ شاعرة قُدر لها أن تشغل المكان الأول بين شواعر العربية .

وأقول مولد شاعرة ، لأن الرواة لم يحتفلوا بالخنساء الإراثية ، على ما سوف نفصله إن شاء الله فى حديثنا عن الشاعرة .

ومنذ مات صخر ، لم تنتفع «تماضر» بحياتها ، وإن عاشت بعده نحو ثلاثين عاماً تبكيه وترثيه ، وأبت أن تنزع ثوب الحداد عليه طوال هاتيك السنين .

وقد ذاقت قبل فجيعتها المزدوجة بفقد أخويها ، طعم الترمل ، وأغلب

(١) عسيب : جبل بأرض بنى سليم . والأبيات مروية فى (الأغانى : ١٣ بولاق) ، وفى (الشعر والشعراء : ١٩٩) — وانظر مجمع الأمثال للميدانى : ٢ / ٧٨ .

(٢) أو قتل بطعنة ربيعة بن ثعلبة الأسدى ، كما فى (جمهرة أنساب العرب) — ١٨٥ .

الظن أنها ذاقت قبلهما مرارة اليتم ، ثم ذاقت بعدهما محنة الثكل ، لكن مصابها فى « صخر » بخاصة ، ألهاها عن كل قديم وحديث .

وانتشر نور الإسلام ، وسعدت « تماضر » برؤية نبيه صلى الله عليه وسلم ، إذ جاءت مع قومها بنى سليم فبايعته فى السنة الثامنة للهجرة ، ورق لها ، عليه الصلاة والسلام ، فى حزنها المتلف ، واستنشدها شعرها فى صخر ، فراحت تنشده وهو يصغى إليها بقلبه الكبير ويستزيدها قائلا : «هيه ياخناس !» ويومئ بيده .[1] وأبت عليه رحمته وإنسانيته أن يلومها أو يزجرها ، أنْ لم تتسلَّ بالإسلام عمن فقدت .

وكذلك استقبلتها السيدة « عائشة أم المؤمنين » فقالت لها فى رفق وقد أحزنها أن تراها حليقة الرأس مرتدية صداراً من شعر تدب من الكبر على عصاً :

ــ أخناس !

أجابت الشيخة الحزينة وقد هزها الدعاء الرقيق : لبيك يا أماه .

قالت تستثير فيها إرادة التصبر والتجمل بالعزاء :

ــ أتلبسين الصدار وقد نهى الإسلام عنه ؟ قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فما لبستُ هذا[2].

فخفضت رأسها وهى تجيب فى أسى وضعف : لم أعلم بنهيه .

فكفت السيدة عن ملامتها وأقبلت عليها تسألها مترفقة :

ــ ما الذى بلغ بك ما أرى ؟

أجابت وهى تشهق بدمعها : موت أخى صخر .

ثم انثنت تقص عليها ما كان من كريم صنائعه وجميل بره ، وتحدثها عن قصة هذا « الصدار » الذى لبسته عليه منذ مات ، مصداقاً لقوله فيها يوم لامته زوجه « سلمى » على مشاطرته إياها ماله مرة بعد مرة :

ولو هلكتُ مزقتْ خمارهــا واتخذتْ من شعرٍ صدارها

---

(١) « الإصابة » ٣٤/٨ . وانظر معه (الاستيعاب : ١٨٢٧/٤) ط نهضة مصر .

(٢) « الشعر والشعراء » : ٣٠١ .

ولمست الحزينةُ صدارها ، ثم رفعت رأسها إلى أم المؤمنين قائلة :

« والله لا أخلف ظنه ، ولا أكذب قوله ما حييت ! »

فإن يكن الإسلام قد نهى عن مثل هذا ، فرحمة الله واسعة !

وبلغ من سوء ما وصل إليه حالها من الحزن ، أنْ ضج القوم منها وشكوها إلى أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب»، وكانت قد خرجت إلى المدينة حاجّةً ، وراحت تطوف فى صدارها الفاجع وزيها الجاهلى مقرحةَ الجفنين حليقة الشعر لا تكف عن نواح وبكاء . فأراد أمير المؤمنين أن يأخذها بالصبر ويردها عما هى فيه من حزن متلف ، فقال يزجرها ويعظها :

« إن الذى تصنعين ليس من الإسلام . وإن الذين تبكين هلكوا فى الجاهلية وهم حَشْوُ جهنم » .

قالت : ذلك أدعى لحزنى عليهم !

ثم أنشدته بعض شعرها فى أخويها ، فتأثر وقال ، فيما رووا :

« دعوها ، فإنها لا تزال حزينة أبداً ! »

٥ ـ ثكل الخنساء بنيها الأربعة

ثم شاء الله أن يذيقها محنة الثكل فى بنيها الأربعة ليبلوحزنها على صخر ...
فى بنيها الأربعة ؟
أو ما يزال لها بنون ؟

لقد نسيناهم فى غمرة الأحداث التى ألمت بصخر . أنستنا إياهم والدتهم « تماضر» نفسها فما أشعرتنا لحظةً أنهم فى دنياهم . حتى ليكاد يشق على مثلى أن تتصورها قد حملتهم أجنةً فى رحمها ، وأرضعتهم من ثدييها .

ولقد كانوا رجالا جديرين بأن يملئوا حياة أى أم : إلا تلكم الخنساء !

وكانت لكل منهم حياته وهمومه ومشاغله ، ولكن الخنساء — كما تصورها لنا الأخبار — تقف فى عزلة عنهم جميعاً ، وتبدو كأنها لا تحس لهم وجوداً ، أو تضفى على أحدهم حقّه من عواطف الأمومة وهمومها .

ابتُلى ولدُها البكر « أبو شجرة بن عبد العزى » بالمحنة التى ما بعدها محنة : ارتد عن الإسلام ؛ وشارك فى قتال جيش خالد بن الوليد الذى سيره أبو بكر ، رضى الله عنه ، لحرب المرتدين . وروّى رمحه من دم المجاهدين فى حروب الردّة ، فذلك حيث يقول من قصيدة طويلة ، نقلها « الطبرى » [1] :

وروّيتُ رمحى من كتيبة خالد وإنى لأرجو بعدها أن أُعمرا

وبلغ الخنساءَ النبأ والشعرُ ، فما رأيناها تهتز فى بدنها شعرة واحدة ، ولا سمعنا عنها خبراً يحدث أنها اكترثت للأمر ؛ أو عناها أن تسمع أن ولدها أبا شجرة ، أتى أميرَ المؤمنين عمر يستحمله — بعد أن تاب — فوثب عليه بالدرة ، وهو يذكر قوله : * ورويت رمحى من كتيبة خالد *
فولى هارباً [2] .

وكانت لها ابنتها « عمرة بنت مرداس » عروساً رقيقة شاعرة . .

ثم كان لها بنوها : العباس ؛ وجزء — أو زيد — ومعاوية هبيرة.

(١) تاريخ الطبرى : ٣/٢٣٥ – وانظر الإصابة ٨/٤٥ . (٢) تاريخ الطبرى : ٣/٢٣٦ – وفيه شمر لأبى شجرة ، قاله فى الحادثه ، وهو منطلق إلى أرض بنى سليم .

وقد غابوا عن حياتها فلم نرهم إلا فى الليلة التى خرجوا فيها مع جيش المسلمين لفتح فارس ، فباتت ليلتها تلك توصيهم بالصبر والثبات .

قالت : « يا بنى إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ، وإنكم لبنو أب واحد وأم واحدة : ما خنت أباكم ولا فضحت أخوالكم ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم . وقد تعلمون ما أعد الله تعالى للمؤمنين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية ، يقول الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) ... فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها فتيمموا وطيسها وجالدوا رسيسها تظفروا بالغنى والكرامة فى دار الخلد والمقامة »[1] .

وتمضى الرواية فتقول إنهم أصبحوا فباكروا مراكزهم فى المعركة ، وتقدموا واحداً بعد واحد ، ينشدون أراجيز[2] يذكرون فيها وصية أمهم العجوز . قال الأول :

يا إخوتى إن العجوز الناصحه   قد نصحتنا إذ دعتنا البارحهْ
مقالة ذات بيانٍ واضحه   وإنما تلقون عند الصابحهْ
مَن آل ساسان كلاباً نابحهْ

وأنشد الثانى :

إن العجوز ذاتُ حزم وجلدْ   وقد أمرتنا بالسداد والرشدْ
نصيحة منها وبِرًّا بالولد   فباكروا الحرب حُماة فى العدد

وقال الثالث :

والله لا نعصى العجوز حرفا   نصحاً وبرًّا صادقاً ولطفا
فبادروا الحرب الضروس زحفا   حتى تلفُّوا آل كسرى لفَّا

وأنشد الرابع :

لست لخنساءَ ولا للأخرم   ولا لعمرو ذى السناء الأقدم

---

(١) هكذا رويت الخطبة فى (الاستيعاب : ٤ / ١٨٢٨ – وخزانة الأدب : ١ / ٣٩٥ – وشرح مقامات الحريرى للشريشى : ٢٣٦ ط ١٣٠٠ هـ . والخبر مروى فى الإصابة ٨ / ٢٥٣) بإيجاز .

(٢) اقتصرنا هنا على ما اتفقت الرواية فيه بالإصابة والاستيعاب ، وأمسكنا عن ذكر أبيات جاءت فى الثانى ، دون الأول .

إن لم أُرَهْ في الجيش جيش الأعجمي ماض على الهول خِضمٌّ خضرم

وما زالوا حتى استشهدوا عن آخرهم .

والرواة مجمعون على أن عددهم أربعة ، وإن لم يحددوا بالضبط أسماءهم . فابن قتيبة يذكر أنها ولدت لمرداس من البنين : زيداً ومعاوية وعمراً[١] ، وبنتاً واحدة ، فهل كان رابعَهم العباسُ بن مرداس ، أخوهم الشقيق حيث تقول الخنساء في وصيتها لهم : « إنكم لبنو أب واحد وأم واحدة » . فالأربعة إذن أشقاء ؟ وقد نجد مخلصاً في اتهام هذه الوصية بالوضع ، لكنا لا نملك أن نقطع هنا بيقين ، وإذ ذاك لا يبقى أمامنا إلا أن نفسر اضطراب أخبار بني الخنساء — حتى في أسمائهم — بأن الرواة إنما اهتموا بصخر ، البطل الأول في قصة الخنساء ، فلم يعنهم أن يحرروا الأنباء عمن عداه .

* * *

تم الفتح ، وآب الجيش الظافر يحمل للخنساءِ مع هتاف النصر خبرَ استشهاد بنيها الأربعة ، فما كان منها إلا أن قالت : « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة »[٢].

ثم لم تزد . .

ولم يذكر لها الرواة بيتاً واحداً ترثي به فلذات كبدها !

بل لم يذكروا شيئاً عن حزن لها عليهم ، أو حديث منها عنهم . . .

وإنه لموقف عجيب من أم ثكلى . . .

وهو موقف أعجب ، من شاعرة تجيد الرثاء . . .

أهو الإسلام قد منحها الصبر وأغراها بالعزاء ؟

لكن كيف وقد أبت أن تتعزى عن صخر ومعاوية ، على كثرة ما حاول المحاولون أن يردوها إلى جميل التأسي والصبر على قضاء الله ، فلم تستجب لواعظ

(١) « الشعر والشعراء » ١/٣٠١ . والذي في (جمهرة أنساب العرب) أن أسماء أبنائها من مرداس : العباس ، وجزء ، ومعاوية ، وهبيرة .

(٢) « الإصابة » ٨/٣٥٣ . ومثله في (الاستيعاب ج ٤) .

ناصح ، ولا زاجر لائم ، بل قالت للسيدة عائشة ، رضى الله عنها ، حين ذكرت لها نهى الإسلام عن لبس الشعار الجاهلى :

« والله لا أخلف ظن صخر ، ولا أكذب قوله ما حييت »

وبقيتْ عند تصميمها وإصرارها ، لا تنزع ثوب الحداد .

أهو مجد الاستشهاد قد هوّن من مصابها ، بالقياس إلى مصرع أخويها ؟ لقد يقال هذا ، فيؤيده المروى عنها إذ سألها أمير المؤمنين « عمر » يوماً :

ــ ما أقرح مآقى عينيك ؟

أجابت : بكائى على السادات من مضر .

قال : يا خنساء ، إنهم حَشْوُ النار !

فردت عليه قائلة :

ــ ذاك أطولُ بعويلى عليهم : إنى كنت أبكى لهم من الثأر ، وأنا اليوم أبكى لهم من النار .

كما يؤيده قولها عندما بلغها استشهاد بنيها الأربعة فى وقعة القادسية : « الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم » .

لكن مجد الاستشهاد فى سبيل الله ، لم يحل دون البكاء على من استشهدوا من الصحابة السابقين[1] ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع نساء المسلمين يبكين قتلى أُحُد ، فيقول فى حزن وتفجع : " وحمزة لا بواكى له ! " فلم تبق مسلمة هناك إلا بكت على سيد الشهداء[2] .

ولنفرض أن الخنساء ، وجدت فى مجد الاستشهاد عزاءها ، فهلا هاج مصرعُ الأبناء الأربعة شاعريتها ، وأطلق لسانها بنشيد الشهادة ، وحلاوة الإيمان !!

فهل يقال إن بكاءها على أخويها قد استنفد الدمع من مآقيها ، وإن رثاءها لهما استهلك عواطفها ؟

---

(١) فى السيرة لابن هشام ، الجزء الثالث : ثلاث قصائد لكعب بن مالك ، وثلاث لحسان ، وسابعة لعبد الله بن رواحة ، فى بكاء حمزة بن عبد المطلب . وفى آخر الجزء الرابع ثلاث قصائد لحسان ، يبكى الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) السيرة : ٤/٣١٧ ، ٣٢ .

لو قلناه لأيدنا من ديوان الخنساء نفسها قدر كبير من شعرها فى صخر ومعاوية ، ففى معاوية تقول :

فآليت آسى على هالكٍ وأسأل باكيةً مالها ؟

وفى صخر تقول :

حلفتُ بالبيت وزواره إذ يُعملون العيس نحو الجمارْ
لا أجزع الدهرَ على هالك بعدكَ ما حنَّت هوادى العِشار

لكن ثكل أمٍّ شاعرة ، أبناءً أربعةً ، فى يوم واحد ، جدير بأن يدرّ عصىّ الدمع ، ويبث فى الأشلاء الممزقة جديداً من الحزن والأشجان .

الموقف جد عجيب ، ولا تفسير له عندى إلا إحدى اثنتين : فإما أن يكون حزنها المشهور على «صخر» قد جعل الرواة والسمار والقصّاص ، لا يكترثون — كما قلت من قبل — لغير هذه الأخوة الفذة ، بل لعلهم أضافوا إليها ما أضافوا حتى جعلوا منها أشبه بقصة أسطورية .

وإما أن يكون موقف الخنساء من بنيها ، مصدره شذوذ فى طبيعة تماضر ، جعل عاطفة الأخوة فيها تطغى على عاطفة الأمومة التى هى جوهر الأنوثة ، والعنصر الأصيل فى مقومات الفطرة لحواء :

إن نفسى بعد صخر بالردى معترفه
وبها من صخر شىء ليس يُحكى بالصفه !

وحين أذكر هذا ، يلفتنى أن عواطف الأمومة عند «الخنساء» باهتة لا تكاد تُلمح ، وهذا ديوانها بين يدى أحاول أن أعثر فيه على أثر من صورة الأم فى تجربتها العظمى ، ولا أثر . كما حاولت عبثاً أن أجد فيه صدى ، أى صدى ! للحزن الأكبر ، الذى تذوقه الثكلى .

وليس فى كل مصادرنا ومراجعنا ، كلمة لها عن ولدها « أبى شجرة » فى ردته ، ولا عن ولدها « العباس بن مرداس » فى موقفه غير الكريم من الرسول ، عندما أعطاه دون ما أعطى بعض المؤلفة قلوبهم ، أو حين أبى أن يستجيب للنبى صلى الله عليه وسلم ، لما سأل أصحابه فى ردّ سبايا هوازن [1] .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣/١٣٧ . السيرة لابن هشام : حـ ٤ .

وفى ديوانها خمسة أبيات فى ابن صخر ، تُحدِّث عن حبها له وفخرها به[١] ، وفى ديوانها كذلك ، مرثية فى صخر ، استهلتها بالجزع على بنتِ صخر فى مناحة أبيها :

أبنتُ « صخر » تلكم الباكيه لا باكى الليلة إلا هيه[٢]

ولكن أين بنو الخنساء ؟ أين فلذات كبدها ؟ أما هاجها مرأى بنتها « عمرة بنت مرداس » فى مناحة الأب ؟ أما روعها مشهد يتاماها حين فقدوا أباهم ؟ أما هزتها محنة ولدها البكر حين ابتلاه الله بلعنة الردة ؟ أما ساءها سخط ولدها « العباس » لعطاء قليل ، وقوله فى ذلك شعراً ، بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم فقال :

« اذهبوا فاقطعوا عنى لسانه » فزادوه حتى رضى ؟

أما كان لها رأى فى موقفه من سبايا هوازن ، حين سأل الرسول أصحابه أن يعتقوهن ، فأبى العباس ؟

أسئلة تطول ، والخنساء فى أخبارها وفى ديوانها ، صامتة لا ترد جواباً .

هو الشذوذ إذن فى طبيعة الخنساء يفسر موقفها من ابنتها فى جلوة عرسها[٣] وشبيه به موقفها من بنيها الأربعة حين استشهدوا ، على تفاوت ما بين العرس والموت .

ومهما نتهم الخبر ، فلا ريب فى صدق دلالته على ما أحس القوم من انحراف الخنساء عن فطرة الأمومة ، إلى حد جعلهم يغرون ابنتها العروس بالتحرش بها ، كى يستثيروا ما يعرفون من غيظها ![٤]

ولم أنس أنها قالت لابنتها ما قالت ، وقد علت بها السن وأنهكتها الشيخوخة ، لكنى أسأل «علم النفس» عن هذا الهذيان ، فلا أراه يهدره بحال ما ، بل يرصده فى عناية ، ليستبين ما وراءه من شواغل مطوية وخواطر مكبوتة ، ألجمتها الإرادة حيناً ، وضبطها العقل أحياناً ، حتى إذا آنست من الإرادة ضعف الشيخوخة ، ومن العقل غفلة الكبر ، انطلقت من عقالها تهذى بالمطوى وتكشف عن المكبوت !

أو هى الصورة التى رسمها المجتمع العربى لشاعرته الأولى ، والقصة التى أبوا أن يفسحوا فيها مكاناً لغير « صخر » ، ثم الشقيق معاوية ، وأما من عداهما فظلال باهتة أو مهتزة .

---

(١) « الديوان » ص ٨٠ . (٢) « الديوان » ص ٩٠ .

(٣ ، ٤) سبقت الإشارة إلى هذا الموقف فى ص ٣١ .

٦ – وفاة الخنساء

ولقد عاشت الخنساء بعد مقتل بنيها سنين كثيرة ، لا نكاد نسمع خلالها خبراً عنها ، حتى ماتت فى البادية .

أما متى ماتت ، فقد كان المظنون ألا تختلف الأقوال فى تحديد عام وفاتها، بعد أن ذاعت شهرتها وبَعُدَ صيتها وقيد اسمها فى (ديوان بيت المال)، بوصفها صحابية ، أم شهداء ؛ تأخذ رزق بنيها الأربعة [١] .

لكنا نجد أقوالا شتى للمحدثين ، يتسع الخلاف فيها حتى يستغرق ثلث قرن أو يزيد !

فإلى جانب القول المشهور بوفاتها عام ٢٦ هجرية (٦٤٦ م) – أو ٢٤هـ فى أول خلافة عثمان كما نقل الأستاذ عمر رضا كحاله[٢]، والفرق إلى هنا هين والخلاف يسير – يوجد قول بأنها توفيت فى زمن معاوية ، دون تحديد للسنة[٣]، أو سنة ٦٦٤م وهو قول «جبر بيلى» وتبعه فيه فؤاد البستانى فى (الروائع) مستكثراً أن تكون قد دبت على العصا وقد ماتت فى عامها الحادى والسبعين ، – على قول بوفاتها سنة ٢٦هـ – « وهو عمر تدركه النساء على الغالب دون أن يدببن من الكبر على العصا » ومستظهراً بعد ذلك، بخبر عن «علقمة بن جرير» أنه قال لمعاوية إنه رأى الخنساء فى عرس ابنتها وقد هرمت .

وفات الأستاذ فؤاد ، أن علقمة لم يحدد زمن رؤيتها ، فى حديثه عنها لمعاوية ، فغيرُ بعيد أن يكون قد رآها فى عهد عثمان أو عمر .

كما فاته الوقوف عند المروى عن لقائها بأم المؤمنين عائشة ؛ وفيه أن الخنساء كانت تدب على عصا .

ومثل حزنها جدير بأن يعجل بشيخوختها ، فى بيئة تنضج فيها المرأة مبكرة، وتشيخ قبل الأوان !

---

(١) الاستيعاب : ٤/١٨٢٧ .
(٢) « أعلام النساء » ط دمشق .
(٣) دائرة معارف البستانى – مادة خنساء .

أما « لويس شيخو » فحدد لوفاتها عام ٦٨٠ م .

وكان هذا الخلاف الواسع المدى – بين عامى ٦٤٦ ، ٦٨٠ – جديراً بأن ينبه هؤلاء جميعاً إلى ما فى محاولتهم تحديد عام مولد الخنساء من تعسف وخطأ ، إذ كانت يوم ولدت ، مغمورة مجهولة ، لا فرق بينها وبين ألوف من بنات سليم ، وملايين من بنات مضر وعدنان !

وإذ نرجع إلى الأقدمين ، نراهم وقفوا بأخبارها عند استشهاد بنيها الأربعة فى القادسية ، وأن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – « كان يعطيها أرزاق أولادها حتى قبض »[1] .

والنص صريح فى أنها أدركت عهد عثمان رضى الله عنه .

ونؤثر أن نقف بها عنده ، دون أن نحاول تحديد عام بعينه لوفاتها ، وكذلك فعل « كرنكوف » فى دائرة المعارف الإسلامية ، إذ اكتفى بالقول إنها « عمرت إلى أن أدركت نصر الإسلام المبين » .

فلتكن وفاتها فى أوائل خلافة عثمان ، أو فلتكن بعد ذلك بقليل أو كثير ، فالأمر عندنا ليس بذى خطر كبير ، إذا قدرنا أن الشاعرة – التى تعنينا – قد أتمت حياتها الشعرية قبل ذاك بأمد ، وأن « تماضر » قد خرجت فعلا من الحياة المادية عقب يوم القادسية ، فلم يبلغنا من أخبارها إلا ذاك المروى عن « علقمة بن جرير » إذ ذكر لمعاوية أنه رآها فى عرس ابنتها .

* * *

وليس يعجزنا أن نتمثلها فى أعوامها الأخيرة ، عجوزاً هرمة ، تدب على عصاً ، هاذية بأوجاعها وشجونها وأحزانها ، نائحة على السادات من مضر .

وقد أقفرت دنياها من الأب ، والزوج ، والشقيق ، والأخ ، والأبناء ، ولم يبق من أسرتها إذ ذاك سوى ابنتها « عمرة بنت مرداس » تستقبل الحياة بعيداً عن الشيخة الهرمة الهاذية .

ولسنا نعلم هل شهدت « عمرة » احتضار أمها ، كما لا ندرى على التحديد

---

(١) « الإصابة » : ٣٥٢/٨ ، ومثله فى « الاستيعاب » .

من أغمض عينيها اللتين قرحهما البكاء ، ونزع عنها صدارها الحزين ، واستبدل به الكفن ، ولا هؤلاء الذين حملوها على الآلة الحدباء ، حتى أضجعوها فى مرقدها الأخير تحت رمال البادية .

ولم يرثها أحد من قومها . . .

ولم ترثها بنتها « عمرة » وقد رثت أباها مرداساً ، وأخاها العباس بن مرداس ، وابنها الأقيصر . . .

بل لعل أحداً لم يبكها . وقد وجدوا فى الموت راحة لها من محنة الحياة . . .

* * *

وآن للنائحة أن تصمت . . .

وآن للمسهدة الحزينة أن تنام . . .

لكن أصداء مراثيها فى « صخر » ظلت تتردد ملء الفضاء العريض على مر العصور .

وبقى حزنها على «صخر» جديداً، يتناقله الناس جيلا بعد جيل . وعز على مثل « أبى العلاء المعرى » أن يتصورها قد نسيت حزنها فى العالم الآخر ، أو شغلت عن صخر بنعيم الفردوس . فهو يتمثلها — فى أقصى جنة الغفران " قريبةً من المطّلع إلى النار ، تنظر إلى صخر "[1] الذى شغلت به فى أخراها كما شغلت به فى دنياها . . .

---

(١) رسالة الغفران : تحقيق المؤلفة —ص ٣٠٨ ط رابعة ، ذخائر .